على طريق الأصالة

(١٧)

تقويم ما قدمه جيل الرواد

وقراءة جديدة لكتابات الشوامخ

أنور الجندى

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقويم ما قدمه جيل الرواد

وقراءة جديدة لكتابات الشوامخ

ظهرت فى السنوات الأخيرة الكثير من المذكرات والذكريات واليوميات التى قدمها كتاب الأجيال التى تلت جيل الرواد الذى كان له الصدارة فى العصور التى تلت الحرب العالمية الأولى وامتدت إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية والتى سيطر كتابها على الحياة الأدبية فى البلاد العربية وكان للسياسة والصحافة الحزبية أثرها البعيد فى إبرازهم وإكسابهم الشهرة المدوية فى حين أنهم لم يكونوا إلا بمثابة قناطر تنقل فكر الغرب إلى محيط الثقافة الإسلامى وكانوا فى أبرز مظاهرهم لا يملكون منهجاً خاصاً ولا رؤية أصيلة ، وقد خدعهم البريق ولمعت تحت عيونهم الأصداف، فظنوا أنها الجوهر . وآية ذلك أنهم انفصلوا عن تيار الفكر الإسلامى والأدب العربى ، وربطوا أنفسهم بمطالع الزحف الغربى على بلاد المسلمين فجعلوا منطلقهم من الحملة الفرنسية وسموا جولتهم بالأسماء الإقليمية والقومية ، فحالوا أن يكتبوا أدبا مصرياً أو سورياً أو عراقياً ، وكان قائدهم فى هذا أستاذ الجيل (لطفى

السيد) الذى أنكر رابطتى العروبة والإسلام ، وكانت الرؤى التى يتحركون فى إطارها هى تلك التى رسمتها الصحف التى يصدرها المارون فى مصر (الأهرام ـ المقطم ـ الهلال) ويجدون فى شبلى شميل بدعوته إلى مذهب دارون وجرجى زيدان بدعوته إلى تزييف التاريخ الإسلامى وصروف ومكاريوس فى دعوتهما إلى الماسونية وتقبل النفوذ البريطانى منطلقاً ، بدأ واضحاً فى كتابات طه حسين والعقاد وهيكل وسلامة موسى ومحمود عزمى وعلى عبد الرازق .

وأعطت المعركة الحزبية للفكر طابع الخصومة والجدل والهجاء المقذع وظهر هذا الجيل على الخصومة السياسية دون أن يهاجم الإنجليز أو الاستعمار بل قبل مفاهيمه فى الفكر والاجتماع فكان هذا الولاء الفكرى لمذاهب الغرب فى الأدب والتاريخ حتى قيل أن طه حسين كان من أتباع المذهب الاجتماعى الفرنسى (دوركايم) وأن العقاد كان من أتباع المذهب النفسى (فرويد وغيره) بل قيل فى الأخير أن العقاد وكان هيجليا أى أنه تلميذ لمدرسة هيجل وهو ما وصفه به أقرب تلاميذه إليه (عبد الفتاح الديدى) .

ولقد كشفت الذكريات والمذكرات فى الأخير أن هناك رابطة كانت تجمع هذا الجيل هى رابطة الإنتحار فقد عرف أن طه حسين وهيكل والعقاد فكروا فى الإنتحار وأن بعضهم كتب عنه ، كما أن

بعضهم اتهم باستعمال المخدرات وأن هذا الكلام جرى طرحه فى مساجلات الأدباء السياسية .

ولعل أخطر ما فى هذا كله أنهم فى نفس الوقت الذى كانوا يهاجمون النفوذ الأجنبى البريطانى بقوة ، كانوا يؤمنون بالفكر الغربى والحضارة الغربية والمنهج الديمقراطى ولم يكن النفوذ الأجنبى يطمع فى أكثر من ذلك .

وكان هذا هو منطلق مدرسة سعد زغلول التى سيطرت فكرياً وسياسياً بعد الحرب العالمية الأولى وبعد أن انتزعت القيادة الفكرية من مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وأحلت مفاهيم السياسة الحزبية بديلا عن الوطنية وكلمة الإستقلال بديلا عن كلمة الجلاء .

وكان أبرز كتاب مصر المجددين (الذين أثاروا قضايا التغريب) فى صف حزب الأحرار الدستوريين (ذوى الولاء الواضح للاستعمار) لطفى السيد وطه حسين وهيكل والمازنى وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى وفى أحضانهم ظهر أخطر كتابين فى مهاجمة الإسلام : الشعر الجاهلى لطه حسين والإسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرازق .

وكان الكتاب الرواد يقبلون مذاهب الغرب فى النقد والأدب والشعر وقد حمل العقاد والمازنى لواء الدعوة إلى المدرسة الإنجليزية

فى النقد (هازلت وغيره) بينما حمل طه حسين لواء المدرسة الفرنسية (تين وبرونتير وغيره) .

ولم يكن لدى كتاب الجيل الرائد الخبرة العميقة ؛ فانخدعوا فى مواقف كثيرة ، خدعهم (ماكس نوردو) اليهودى خليفة هرتزل فكرموه ، دون أن يعوا دوره فى الصهيونية وخدعهم عباس البهاء وحفلوا به ودعوا إلى نحلته دون أن يتنبهوا إلى أخطاره وسمومه .

بل لقد كرموا فى الجامعة الفيلسوف رينان وهو أكبر من حمل على الإسلام وهاجمه أشد الهجوم .

وعندما حدث الصراع بين أبناء المدرسة الحديثة لم يكن لحساب الفكر الإسلامى وإنما كان صراعا بين (لاتينيون وسكسونيون) العقاد وطه حسين — وفى مجال التعليم كان الصراع بين طه حسين وإسماعيل القبانى ولاء للمدرسة الفرنسية وولاء لمدرسة ديوى وفى القصة ترجمت الكتابات الفرنسية المكشوفة ، وبرز أدب الكشف والإباحة ، كما برزت الأسطورة .

وقد كان هؤلاء الكتاب فى مستهل حياتهم الأدبية (فى الغرب) قد تابعوا المستشرقين فهاجمه منصور فهمى النبى وزوجاته ، وهاجم طه حسين ابن خلدون ، وهاجم زكى مبارك الغزالى وقال محمود عزمى إن الاقتصاد شىء والإسلام شىء آخر فالإسلام فى نظره دين لاهوتى.

ولما تعالت صيحة اليقظة الإسلامية تقدم هذا الصف من المجددين فادعوا أنهم هم مجددوا الإسلام).

كتب هيكل حياة محمد ، وكتب طه حسين الفتنة الكبرى وكتب العقاد العبقريات وكان منطلقهم مختلفاً عن مفاهيم الوحى والنبوة ، فاعتمدوا مناهج الغرب فى دراسة الأبطال والرجال ، ووضعوا (البطولة) فى مقدمة (النبوة) وجعلوا (العبقرية) بديلا عن (الرسالة ولم يكن مفهوم الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع واضحاً فى كتاباتهم ، فقد كانوا ما يزالون يرون الإسلام دينا لاهوتياً كما يرى مفكروا الغرب المسيحية .

وقال طه حسين أنه وضع كتابه (على هامش السيرة) تقليداً لكتاب غربى جمع الأساطير القديمة .

وفى نفس الوقت الذى برزت فيه هذه الأسماء وسيطرت حجبت كتاب الأصالة : فريد وجدى ومصطفى صادق الرافعى ورشيد رضا وشكيب أرسلان ومحب الدين الخطيب .

وأظهر التغريب رجاله وحجب الآخرين ، ولم يكن مفهومه للتجديد هو المفهوم الأصيل ، وقال الأستاذ حسن البنا : إن ما بيننا وبين المجددين هو مفهوم الوحى والنبوة من ناحية ومفهوم الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع .

وخرست الألسنة فقد كان كتابنا المتصدرون غـــير ملتزمين بالإسلام فى حياتهم أصلا .

ورد الأستاذ حسن البنا على مفهوم العقاد فى الألوهية دون أن يشير إليـــه صراحة ، ولعل أبرز ما يشكل التصور الإسلامى الأصيل للفكر هو ذلك الوضوح الذى تكشف بين المنهج القرآنى والمنهج الفلسفى ، على النحو الذى أبرزه كتاب الدعوة الإسلامية حين كشفوا عنه .

إن مفهوم القرآن كالماء يحتاج إليه المريض والسليم وأن منهج الفلسفة (أو علم الكلام) هو كالدواء الذى يحتاج إليه المريض (على حد عبارة الإمام الغزالى) فقد بدأت اليقظة الإسلامية من خلال جمال الدين ومحمد عبده على نحو شبيه بمفهوم الإعتزال وعلم الكلام وهو الخيط الذى إلتقطه فريد وجدى وإقبال والعقاد والذى جاء المفهوم القرآنى ليعلن أن مرحلة جديدة من مراحل الأصالة قد دخلت على الدعوة الإسلامية وكان حامل لوائه هو حسن البنا .

وكان الشيخ مصطفى صبرى فى كتابه (موقف العلم والعالم من رب العالمين) قد واجه هذا التيار الذى ظهر واضحـــاً فى الكتابات الإسلامية التى كتبها فريد وجدى والعقاد وهيكل — وهى كتابات اعتمدت المنهج الفلسفى بحسن نية ومن هنا أصابها كثير من التغيرات .

وكانت الدعوة الإسلامية قد دعت إلى إلتماس منهج رسول الله

فى العمل ، وأسلوبه فى الدعوة وكتب سيد قطب عن هذا الإتجاه من بعد فى كتابه (التصور الإسلامى) وناقش إتجاه محمد عبده فى التفسير، كما ناقش إتجاه العقاد دون أن يشير إليه صراحة .

وهذا لا يمنع من القول بأن جمال الدين الأفغانى ، هاجم إتجاه أحمد خان فى كتابه (الرد على الدهريين) وأشار إلى أن إتجاه أحمد خان كان له أثره فى ظهور القاديانية وخاصة الفكرة الخاصة بالغاء الجهاد .

وإذا كان الشيخ مصطفى صبرى قد كشف أخطاء كتاب السيرة العصريين فى شأن معجزات النبى (فريد وجدى وهيكل) فإن الشيخ مصطفى عبد الرازق وتلاميذه (على سامى النشار) قد كشفوا عن أصالة الإسلام ورد الفلسفة الإسلامية إلى المعلم الأول : الإمام الشافعى وكتابه (الرسالة) الذى وضع فيه منهج علم أصول الفقه .

وكذلك فقد كشف محب الدين الخطيب عن خطط التبشير بترجمة كتاب الغارة على العالم الإسلامى وتابعه بعد سنوات الدكتور عمر فروخ والخالدى خبايا التبشير والاستعمار فى كتابهما المعروف .

كذلك كشف مالك بن نبى مخططات التغريب وأساليبه وتابعه محمود محمد شاكر فى كشف سموم لويس عوض ، والدكتور محمد محمد حسين الذى كشف عن كتابات ول ديورانت وغيره من اليهود .

وتكشفت فى هذه المرحلة كتابات كثيرين ممن وضعوا فى صفوف الرواد ، تكشف رفاعة الطهطاوى الذى رفع الماركسيون من قدره لأنه دعا إلى الإقليمية المصرية والذى كان تابعاً من أتباع النفوذ الغربى كشف ذلك محمود محمد شاكر حين قال عنه فى كتابه (رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا) :

« أى صيد سمين تلقفه المسيو جومار بخبرته وحنكته وتجربته وبصره النافذ ، فتى ناشىء فى قلب الأزهر ، رآه مفتوناً بالأرض التى وطئتها قدمه ، لم ير مثلها من قبل ، رآه مقبلا بأقصى عزيمته على تعلم الفرنسية ، معجباً بها وبأهلها كل الإعجاب فأخذه (جومار) من قريب فكان له صيداً الى حين ، ولم يكد حتى أخذ المسيو جومار بناصيته ، وأسلمه لطائفة من المستشرقين يصاحبونه ويوجهونه وعلى رأسهم أحد دهاقين الإستشراق الكبار ودهاته وهو البارون سلفستر دى ساسى فاستغلوه أبرع إستغلال ، وصبوا فى أذنه وطرحوا فى قرارة قلبه معانى وأفكاراً قد بيتوها ودرسوها وعرفوا عواقبها وثمراتها حتى تتمرفى دخيله نفسه حتى نسى نفسه وتنكر لماضيه القريب وأعرض عنه وسارع ينجو بحياته الجديدة من خطاطيفه التى تلاحقه ، ألخ .

• • •

هذه حقائق كان يجب على حركة اليقظة الإسلامية أن تكشفها فقد إعتصم التغريبيون بما يسمى (الرواد وأساتذة الجيل والعميد) وكلها مصطلحات كاذبة مضطربة فى سبيل تثبت قواعد التغريب التى أرساها هـؤلاء والتى أصبحت فى المرحلة التالية عقبة أمام مفاهيم الأصالة الإسلامية فكان لا بد من كشف حقيقة هؤلاء الشوامخ وأعادتهم إلى حجمهم. إن هناك أسماء كثيرة لمعت فى ظلال صولة التغريب وطغيان السياسة وأصبحت تستخدم كمحاولة لبديل للأصالة كذلك فقد كان لابد من كشف الأسماء التى لمعت فى التاريخ القريب سواء من تاريخ العصور السابقة أو غيرها وفى مقدمة هذا كله، تلك الجولة الخطيرة التى أطلق عليها ترجمة الفكر اليونانى وأبطالها (الفارابى وابن سينا وغيرهما) ومترجميها الذين أدخلوا عليها زيوفا وأخضعوها لمفهومهم المسيحى أمثال (حنين بن اسحق وجماعته وكان لابد من كشف موقف (المأمون) هذا الموقف الخطير الذى آزر فيه الفكر الدخيل على مفهوم السنة حين حمل لواء السياسة والحكم فى سبيل الدعوة إلى فتنة (خلق القرآن) وساق علماء المسلمين وفى مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل للإمتحان الشديد، هذا كله يجب كشفه وتصحيح الموقف منه، كذلك فى القريب يجب تصحيح موقف الكواكبى ومحمد على اللاهورى (خليفة القاديانى) بالإضافة إلى رفاعة الطهطاوى.

ولنعرف أن هذا ليس هدما لمن يسمونهم الشوامخ ولكنه

تصحيح للموقف فإن هناك عشرات من أعلام الإسلام الأصلاء فى العصر الحديث يقفون فى الظل منذ أكثر من خمسين عاما لأن الصحف التى يتصدرها المغربون تحول دون تكريمهم أو وضعهم فى مكانهم الصحيح . إننا لا نهاجم هؤلاء أصحاب الأسماء اللامعة ولكن نقول لهم مكانكم فإن هناك من الأصلاء من يقفون فى الظل وهم الأحق بمكان الصدارة

لقد كان هؤلاء جميعاً بلا استثناء أولياء للنفوذ الأجنبى والإستشراق ولولا ذلك فأمكن لهم من اعتلاء مكان الصدارة فى مجال الصحافة والثقافة . ولقد كان طه حسين ومن مضوا معه على هذا الطريق أولياء للثقافة اليونانية التى هى علم الأصنام وكانوا يدعون فى افتنات غريب بأن المسلمين قبلوا هذه الثقافة ولو دروا لعرفوا أنهم رفضوها ودحضوا سمومها منذ اليوم الأول ، وقد وقف هذا الموقف كثيرون فى مقدمتهم الشافعى وابن حنبل والغزالى وابن تيمية وابن حزم وغيرهم .

ولقد لقى هؤلاء الأعلام من الإستشراق نكراً وتجاهلا ومحاولة لإلباسهم كثيراً من الشبهات لتقليل قدرهم فى نظر أمتهم .

لقد كان عملهم واضحاً : إنكار فضل الصحابة وإتهامهم فى الفتنة الكبرى وتجاهل قادة الفكر الإسلامى فليس غير الاوربيون واليونان قادة الفكر كما كتبه طه حسين وكان مقرراً على المدارس .

وعلى طريق طه حسين سار زكى نجيب محمود ولويس عوض وعبد الرحمن الشرقاوى وحسين فوزى وسلامة موسى والأجيال الجديدة من المغربين الذين يمزجون بين العلمانية والماركسية ؟



رقم الايداع ٣٣٧٧ /١٩٨٩

مطبعة دار البيان بمصر
ت/ ٩٢٨٦١٩